١٦ السيدة فاطمة النبوية رجع إليها ابن اسحق فى السيرة النبوية

تُعرف السيدة فاطمة النبوية فى التاريخ الإسلامى، بأنها راوية الحديث الشريف، والأحداث الجليلة.

ففى مقدمة الأسماء التى استند إليها ابن إسحاق فى روايته للسيرة النبوية، التى كتبها ابن هشام لتُعْرف باسمه، «سيرة ابن هشام» كان اسم السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين ابن الإمام علىّ رضى الله عنهم.

وتحت عنوان: «إسنادات الرجال» تجد اسم السيدة فاطمة ضمن الأسماء القليلة الموثوق بها والتى رجع إليها كل من ابن إسحاق وابن هشام، فاستندا إليها فى روايتهما للسيرة النبوية.

ويستوقفنا استنادهما إليها ـ بالمجلد الأول فى رواية حديث مهم عن جدتها أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها.. ومصدر أهمية هذا الحديث أنه كان فى اختبار الوحى الذى لجأت إليه أم المؤمنين لتدرك بفطرتها الأنثوية: أهو مَلَكٌ من السماء أم شيطان من الأرض... ولتقولها للنبى ﷺ عن جبريل عليه السلام: «يَا بْنَ عَمٍّ، اثبتْ وأَبْشِرْ، فوالله أنه لَمَلَك من السماء وما هذا بشيطان من الأرض»، وهو ما تناولته الكتابات الحديثة عن القديمة، والخلف عن السلف، وسيظل كذلك مصدراً موثوقاً به إلى قيام الساعة، والسبب أن راويته هى السيدة فاطمة النبوية، الموثوق بها فى الحديث.

وفى المجلد الثانى للسيرة النبوية، نجد ابن إسحاق وابن هشام يستندان إليها فى رواية تاريخية على جانب كبير من الأهمية، لأنها كانت هى الأساس الذى ترجع

إليه كل الكتابات الخاصة بالتاريخ بسرية زيد بن حارثة إلى مدين، حيث نقلت عن رسول الله ﷺ قصة إرساله لهذه السرية، والهدف من ذلك، وهو ما يتناوله العلماء والمؤرخون المحدثون عن الأقدمين، والخلف عن السلف.

والشواهد كثيرة على رواية هذه السيدة الطاهرة للحديث النبوى، والوقائع التاريخية الجليلة كما هو مسجل فى بطون الكتب.. ولكننا قصدنا سيرة ابن هشام لأنها هى الأصل وهى الأساس الذى تستقى منه كل الكتابات قديمها وحديثها وقائع السيرة وأخبارها، للتأكيد إلى أن هذه السيدة الطاهرة كانت من المصادر الأولى الموثوق بها فى الوقت نفسه لرواية الحديث الشريف، والوقائع التاريخية لمصادر لاغنى عنها لمعرفة الإسلام في صورته الأولى التى جرت بها ألْسِنَة رجاله ونسائه من السلف الصالح.

هذه إشارة سريعة إلى مكانة السيدة فاطمة النبوية رضى الله عنها فى التاريخ الإسلامى، فماذا عن سيرتها الذاتية؟ وماذا عن العصر الذى وُجدت فيه؟ وماذا عن موقفها من الفتنة الكبرى التى أطاحت بوحدة الدولة الإسلامية فحولتها إلى شيع وأحزاب؟ وماذا عن مأساتها مع غيرها من أبناء وبنات النبى فى كربلاء؟

تمر القرون متتالية، بما فيها من أجيال وسنين وأيام، ولا تزال الصورة التى تجرى بها أقلام الكتاب، وتدور حولها ألسنة الرواة كما هى.. صورة مأساة كربلاء، يوم استشهاد الإمام الحسين رضى الله عنه ومعه كثير من آل البيت النبوى الشريف، فى هذه البقعة من الأرض ولا يبقي من أبناء الحسين سوى على زين العابدين رضى الله عنهما وجمع من النساء، تتقدمهم السيدة زينب شقيقة الإمام الشهيد رضى الله عنهما.

ومن بين تلك النساء كانت السيدة فاطمة النبوية ابنة الإمام الشهيد.. وكانت يومئذ شابة صبية تحتمى بعمتها السيدة زينب رضى الله عنهما، ولا منجى ولا مغيث من بطش الأمويين سوى رحمة الله.

لكن مَنْ هى هذه السيدة الطاهرة التى تربت فى كنف والدها الإمام الحسين، فنهلت من مَوْرده، وتحلت بخُلُقه، وكانت صورة منه فى شجاعته وجرأته، وصَلاحِه وتديُّنه، وتعبده وتقواه وورعه؟!

ومتى ولدت؟ وفى أى عصر من عصور الخلافة الإسلامية؟ أعصر جدها الإمام علىّ؟ أم عصر عمها الإمام الحَسَن؟ أم عصر مغتصب الخلافة معاوية بن أبى سفيان؟

وكيف كانت فى سنوات عمرها الأولى؟ وما اكتنف هذه السنوات من أحداث جسام بالنسبة للأمة الإسلامية عامة، وبيت النبى ﷺ خاصة؟ وغيرها من أسئلة حَارَ لها الكثير من الباحثين والدارسين والمؤرخين.

من هى السيدة فاطمة النبوية؟ يكفى أن نقول إنها بنت الإمام الحسين من زوجته الرباب، والشقيقة الصغرى للسيدة سكينة، والكبرى للإمام على زين العابدين، وحفيدة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء رضى الله عنها، أى أنها من بنات وأبناء النبى ﷺ وكفى!!

ومتى ولدت؟ فى هذا الأمر تتوارد الكتابات وتختلف.. ومن هذه الكتابات «طبقات الأتقياء» التى يقول صاحبها ابن حيان: إنها لحقت بربها وهى فى السبعين من عمرها.. ومن ناحية أخرى تجمع كل الروايات والمصادر التاريخية على أنها توفيت فى عام ١١٠ هجرية.. وإذا تأملنا ما قاله ابن حيان، وما أورده المؤرخون والرواة كان ميلادها فى عام ٤٠ هجرية.

وإذا كانت قد دارت فى هذا العام ـ وهو الأرجح بشهادة أكثر الباحثين والدارسين ـ فإن مكان مولدها كان فى مدينة الكوفة فى أخريات أيام خلافة جدها علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، الذى استشهد فى شهر رمضان من العام نفسه (٤٠هـ) كما هو ثابت فى التاريخ الإسلامى.

نقول: وُلدت هذه السيدة الطاهرة قبل استشهاد الإمام على وليس بعد استشهاده، لأن أحداث هذه السنة لم تذكر أن الإمام الحسين قد رزُق بمولودة من زوجته الرباب بعد استشهاد أبيه الإمام على كرم الله وجهه.

وقد سماها والدها الإمام الحسين فاطمة تيمناً باسم أمه فاطمة الزهراء، ولعلها كانت أشبه الحفيدات بها، كما كان أبوها أكثر الناس شبهاً برسول الله ﷺ.

وهكذا وُلدت هذه الطفلة فى فترة الخلافة التى احتوطتها المؤامرات والدسائس،

والتى انتهت بمقتل رابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب، واختيار المسلمين لابنه الحسن رضى الله عنه أميراً للمؤمنين ليبقى فترة تتراوح بين الثلاث والأربع سنوات.. حدث قبلها وبعدها ما حدث من أمور جسام.

وهنا تفتحت عيناها طفلة صغيرة على أحداث جسام، وبالقطع كانت لا تعيها ولا تدركها، حتى لو أعيدت على مسامعها مرة ومرات، إذا كيف تدرك مثلا هذا الصراع القائم بين عمها أمير المؤمنين الإمام الحسن وبين معاوية بن أبى سفيان، وهى لم تزل طفلة صغيرة تخطو أولى خطواتها فى الحياة؟

وكيف تدرك ابنة الأربع سنوات أن عمها أمير المؤمنين قد تنازل عن حقه فى الخلافة لمعاوية بعد اتفاق الطرفين على أن يخلف الإمام الحسن معاوية بعد وفاته؟

وكيف تدرك هذه الطفلة معنى رحيل أبناء الإمام علىٍّ كرم الله وجهه عن الكوفة إلى مدينة رسول الله، ثم إجبارهم على الرحيل من مدينة جدهم إلى مكة بعد وفاة الإمام الحسن مسموماً؟

ثم كيف تدرك ابنة التاسعة وفاة عمها الحبيب الإمام الحسن مسموماً، وعلى أيدى من؟ فى الظاهر زوجته اللعينة «الجعدة»، ولكن فى الخفاء على أيدى معاوية ابن أبى سفيان وزبانيته.

هل تدرك فاطمة الطفلة البريئة التى لم تصل العاشرة من العمر أن معاوية قد تآمر مع زوجة العم لقتل العم، كى يتحلل من الاتفاق الذي أبرمه مع الإمام الحسن، والذى ينص صراحة على أن تئول الخلافة بعد معاوية إلى صاحبها والمتنازل عنها الإمام الحسن؟ كيف تدرك هذه الطفلة أن معاوية صنع ما صنع بسبط رسول الله ﷺ وريحانته كى ينكص بالعهد ويتنكر له حتى يخلو له ولأبنائه وأحفاده الخلافة.. فتتحول من خلافة قامت على الشورى إلى ملك عضوض يتوارثه الأبناء والأحفاد؟

ولم ينتظر معاوية طويلا حتى ينسى الناس فعلته، بل راح فى جرأة واجتراء يسعى إلى أخذ البيعة لولده «يزيد»، ليكون أميراً للمؤمنين بعده.

لاشك أن هذه الطفلة التى شبت وأصبحت فتاة وضيئة ـ كما تصفها الروايات ـ

ـ قد سمعت بهذه الأحداث، وأدركت منها القليل ولم تعى منها الكثير، إلا أنها أحداث على أى حال لايمكن أن تمحوها الذاكرة على مر الزمن.

غير أنَّ الحدثَ الأكبر الذى رأته وأدركته ووعته، ولم تنسه قط طيلة حياتها هو يوم مقتل والدها الإمام الحسين فى كربلاء.

ياله من حدث جلل فى يوم رهيب!! أبداً مانسيته فاطمة، أو أى واحدة من آل البيت.. لأنه فجيعة تذكر بالعويل والنحيب، وكيف لا وقد سقط أمام أعينهم فى حومه الوغي الفارسُ الشجاع وسيفه مضرج بدمائه.. سقط صريعاً فى سبيل نُصْرة الحق.. سقط وحوله بنوه وذووه،ومن بعد سقط الجميع، حتى امتلأت ساحة كربلاء بجثث الأطهار الذين ما تخاذلوا عن نُصرته، فهم على قلة عددهم وتواضع عتادهم.. لم يفكروا لحظة فى تركه وحيداً لأشباه الرجال،ولا رجال، وإنما وقفوا معه فى حياته مدافعين مجاهدين،وصمدوا بعد استشهاده يظلون جثته الطاهرة بالسيوف والحراب.. ولكن هيهات أن تستمر سيوف وحراب قليلة أمام جحافل كثيرة من الجبناء غلاظ القلوب.. لقد خرصريعاً الواحد تلو الآخر، مفضلا أن يصبح جثة هامدة وشهيداً إلى جوار سيد الشهداء على أن ينعم بحياة خسيسة غير كريمة.

وهل تستطيع الإبنة الشابة فاطمة أن تنسى ذلك اليوم الذى فيه عُلقت رأس أبيها الطاهرة وبقية رءوس الشهداء على أعواد يطوفون بها شوارع الكوفة وطرقها ومن معهم من النساء والأطفال إلى حيث الطاغية ابن زياد.. ليأمر بمسير هذا الموكب الحزين إلى كبيرهم طاغية الأمويين يزيد بن معاوية فى الشام.

هل يستطيع أحد من المسلمين أن ينسى هذا الموكب الذى يتقدمه الرأس الطاهرة، وخلفها بنات الرسول وقد هُتكت ستورهن.. وهن يسعي بهن كالسبايا .. إلى مَنْ؟ إلى أمير الغوانى والخمور يزيد،ليَقُمْنَ فى مجلسه، وتتقدمهن السيدة زيبنب والسيدة فاطمة النبوية رضى الله عنهما!؟

اللحظات تمر ثقيلة متثائبه، واللقاء غير عادى بين مَنْ طَهَّرَهُنَّ الله تطهيراً، وبين حفيد آكله اكباد الشهداء وعيون الشرفاء زائغة فيما يكون عليه مصيرهن.. وعيون

الجبناء جائلة لا تعرف حرمة المقدسات، حتى إذا حانت نظرة من أحد رجال يزيد إلى هذا الحُسْن الربانىّ، إلى هذه الصبية الطاهرة فاطمة النبوية.. مال إليها راجياً أن تكون له، ومال على يزيد يسأله: «يا أمير المؤمنين هَبْ لى هذه الجارية تكون جارية لى».

هكذا يقولها وقد هان كل شىء عند الأمويين، حتى أصبحت المقدسات مباحة!؟ وترتعد فاطمة ابنة العشرين وتجفل، وتأخذ بثياب عمتها السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ وكأنها تحتمى من نظرات ذلك الفاجرالذى يعبث بحياء مَنْ طهَّرَهُن الله تطهيراً، وأبعد عنهن الرجس.. فتصيح العمةالحزينة الثكلى فى قوة وعزيمة لا تستغرب من ابنة الإمام علىّ وشقيقة الإمام الحسين وفوق هذا حفيدة النبى ﷺ،وتقول موجهة حديثها إلى يزيد وإلى هذا الفاجر الذى يعتبرفاطمة مجرد جارية توهب لمن يطلبها ليتلهى بها ويعبث: كذبت ولؤمت، ماذلك لَكَ ولا له».

وثار يزيد عندما سمع صياح السيدة زينب، ولم يَثُرْ من قبل على نديمه الفاجر حين أراد العبث بالمقدسات والمحرمات، وكبر فى عينيه أن تهاجمه السيدة زينب على هذه الصورة.. ووجد نفسه يصيح فيها قائلاً: «إنما أنت الكاذبة.. ولو شئتُ لفعلتُها وذهبت فتاتك للرجل». وإذا بالسيدة زينب تقول فى إصرار وعناد وكبرياء وشموخ وبلاغة وحكمة: «بل أنتَ الكاذب الشرير، وإنك لأعْجَزُ وأضعف من أن تتجاسر على ذلك.. إلا إنْ خرجت على ملة الإسلام وتبرأت من دين الله».

بعد هذا اليوم كرهت السيدة فاطمة بنت سيد الشهداء حياه الصخب والضجيج تلك التى عاشت فى أتونها الرهيب، وليكفها بين الماضى ما كان.. فقد اغتيل الجد بطعنه جبانة، ومات العم مسموماً، ثم استشهد الأب والإخوة وأبناء العم.. فأية حياة تلك التى قُدّر عليها أن تعيشها فى المدينة أو فى مصر، حيث تسافر مع عمتها السيدة زينب رضى الله عنهما.

تعيش بقية عمرها بمصر صوامة قوَّامة، راوية للحديث، إلى درجة أن أخذ عنها الإمام أحمد بن حنبل، وابن ماجه، وأن يعظمها خامس الخلفاء الراشدين عمر بن

عبد العزيز ويُعْلى قدرها، حتى إنه حين ذُكرت فى مجلسه بأنها لا تعرف الشرَّ، قال: «إن عدم معرفة السيدة فاطمة للشر جنبها الشر نفسه».

وانصرفت هذه السيدة الطاهرة بعد ذلك عن الدنيا انصرافاً كلياً، لقد رأت الكثير، وعرفت الكثير وأدركت الكثير، وقاست من الكثير، فماذا تريد من الدنيا؟ وماذا يبقى لها من الدنيا؟ إنها تريد أن تقبل على العبادة وأن تنصرف إلى الاعتكاف، وأن يبقى لها أن يعرف الناس مكانتها، فيبحثون عنها ويستمعون إليها عن الذى يفيد وينفع حيث تقول ومن كلامها: «والله مانال أهل السفه بسفههم شيئاً، ولا أدركوا من لذَّاتهم إلا بعض ما نال أهل المروءات بجميل ستر اللهْ».

بقى من هذه السيرة العطرة أمر خاص بزواجها، عن هذا الأمر تذكر الروايات التاريخية الموثقة أن الحسن المثنى بن الحسن بن الإمام على خطب من عَمِّه الإمام الحسين إحدى ابنتيه فاطمة أو سكينة، وقال: «اختَرْ لى ياعمَّاه إحداهنَّ» فقال الإمام الحسين: «اخترتُ لك ابنتى فاطمة، فهى أكثر شبهاً بأمى فاطمة الزهراء.. أما فى الدين: فتقوم الليل كله، وتصوم النهار.. وأما فى الجمال: فتشبه الحور العين».

ويتزوجها ابن عمها فى حياة والدها الإمام الحسين رضى الله عنه، وتنجب له ثلاثة أبناء، منهم إبراهيم الجواد، وشقيقه الإمام محمد، اللذان استُشهدا على أيدى بنى العباس.

وقد مات عنها هذا الزوج قبل مأساة كربلاء.. وقبل أن يموت أوصاها بأن تتزوج.. وقد تزوجت بعد فترة من وفاته من حفيد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وبعد موته امتنعت عن الزواج، حيثُ تقدم لها الكثيرون، فكان رَدُّها حازماً قاطعاً ـ كما تذكر الروايات ـ بأنها تزوجت مرتين، ومنَّ الله عليها بالولد فماذا تريد؟

وظلت هذه السيدة الطاهرة «فاطمة النبوية» بقية حياتها ـ سواءً بأرض الحجاز، أو بمصر، حيث يوجد مسجد لها باسمها، وفيه ضريح يُنسب إليها ـ ظلت عاكفة على العبادة، ومقبلة على الزهد، مدبرة عن الدنيا.. وكانت مثلاً رائعاً من أمثلة الصلاح والتقوى، والاستمساك بأهداب الفضائل والمثاليات.. وهو أسلوب غير مستبعد من آل البيت، ومنهج تتبعه غيرها من بنات جنسها على مر الزمن.

***